لماذا نهتم بدراسة القيم؟

د.السعيد بومعيزة
جامعة الجزائر

لماذا نهتم بدراسة القيم؟ إن طرح مثل هذا التساؤل يدخل في إطار انشغال بإعادة اكتشاف أهمية القيم من جديد التي كانت قد حظيت بالاهتمام منذ زمن بعيد بدءًا باليونانيين من خلال كتابات بعض الفلاسفة مثل أفلاطون حتى ولم يسموها كذلك، إذ كانت المصطلحات المستعملة تشير إلى القيمة على أنها: "الخير" و "الكمال" و "الحق" و "الجمال"، الخ. وما يدعونا إلى هذا المسعى هو ما قدمه الأستاذ عبد الرحمان عزي عن أهمية دراسة القيم والتي عبر عنها في نظريته الحتمية القيمية، التي يدعو الباحثين من خلالها إلى إدراك أهمية القيمة وقدرتها على تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية والأزمات المجتمعية. وفي واقع الأمر تعد نظرية الحتمية القيمية جديرة بالاهتمام لأنها تجعل من القيم متغيرا مستقلا، وليس متغيرا تابعا، وبالتالي فهي توضع في مصاف تنظير المفكرين الكبار أمثال ماكس فيبر الذي حاول شرح تطور الرأسمالية الغربية

انطلاقا من الدور الذي تلعبه القيم الدينية البروتستانتية؛ كما كان مع بداية القرن الماضي قد انشغل بأثر القيم في توجيه البحث العلمي، كما ابتكر مصطلح "اللياقة القيمية" وأشار إلى أن قيمنا تحدد موضوعات البحث التي نبحث فيها. وفي نفس الاتجاه كان Talcot Parsons قد أشار في ورقته الهامة بعنوان: «Religious Organization in the United States.1958» إلى الجذور الأساسية الدينية للقيم.[1]

أيضا، فإن السؤال أعلاه يعود إلى أن هناك إهمالا ملحوظا لدراسة القيم من قبل علم الاجتماع الذي هو مرتبط ارتباط وثيقا بالظاهرة الاتصالية والإعلامية. فبالرغم من هذه العلاقة الوطيدة، إلا أن علماء الاجتماع لم يولوا عناية معتبرة لمسألة القيم، على غرار بعض الفروع المعرفية الأخرى كعلم الاقتصاد وعلم النفس الاجتماعي الذي تزايدت فيه مؤخرا أبحاث قياس القيم الإنسانية وأنساق القيم. ويرجع عزوف علم الاجتماع عن دراسة القيم لمدة طويلة من الزمن، في رأي أحد الباحثين، إلى أنهم كانوا يعتقدون أن دراسة موضوع القيم من شأن الفلاسفة وحدهم، ولذلك لم يعيروها أي اهتمام وتركوها للفلاسفة، مضيفا أن علماء الاجتماع كانوا مصابين بفوبيا اجتماعية من ناحية القيم، سببها الأساس هو الاعتقاد بأن دراسة القيم لا يمكن أن تكون علمية بمعنى الكلمة.[2] وهذا بتعلة التقيد بالموضوعية والعلماوية. أي أنه وإلى حد وقت غير بعيد، كان هناك وهم يتمثل في إمكانية تحقيق نوع من الموضوعية الخالية من الحكم القيمي في

---

[1]- السعيد بومعيزة، أثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكيات لدى الشباب- دراسة استطلاعية بمنطقة البليدة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2005-2006 ص.141.

[2]- نفس المرجع

وصف الواقع الاجتماعي وتفسيره الذي سكن علماء الاجتماع القلقين بشأن منح تخصصهم مرتبة علمية. وبالتالي، اعتقد علماء الاجتماع أن دراسة القيم والاعتماد عليها لتفسير الظواهر الاجتماعية يدخل في إطار المعيارية، أي ما ينبغي أن تكون عليه الأشياء، وليس ما هي عليه فعلا. فهذا الموقف من قبل علم الاجتماع كان أحد العوامل المهمة وراء التأخّر كثيرا في التأسيس لنظرية القيمة التي ما زالت تعاني من غياب التوافق.

فهذا الموقف من علم الاجتماع، ربما يكون هو الآخر قد أثر على علماء الاتصال الذين هم أيضا لم يولوا عناية كافية لدراسة القيم، وهنا نقصد الدراسات التي تكون فيها القيمة متغيرا مستقلا وليس متغيرا تابعا، حيث وفيما يتعلق بهذا النوع الأخير من الدراسات توجد الكثير من الأبحاث، مثلا، في البلدان العربية ولكنها لا ترقى، في اعتقادنا، إلى المعرفة العلمية المتعارف عليها حيث أغلب افتراضاتها مصبوغة بصبغة إيديولوجية وسياسية أكثر منها علمية.

إن مثل هذا الإهمال لدراسة القيم من قبل علماء الاتصال، ونؤكد مرة أخرى على القيمة كمتغير مستقل، يثير الكثير من التساؤلات، وهذا بالرغم من أن الفعل الاتصالي سواء كان فرديا أو جماعتيا (الجماعة) أو مؤسستيا (المؤسسة) أو مجتمعيا (المجتمع) محكوم في الأساس بالقيمة التي تحدد من يتصل؟ وكيف يتم الاتصال؟ وعن طريق ماذا؟ وماذا سيقال في الاتصال؟ ولمن يتوجه الاتصال؟ وما هو نوع التأثير المراد تحقيقه؟ لأن في نهاية المطاف ترتبط المقاصد والرسالة والأهداف ارتباطا وثيقا بالقيم. وعليه، فإذا كانت المقاصد مرتبطة بالقيم فستكون الأهداف إيجابية حتما.

وبالرغم من أهمية القيم لكونها تمثل عناصر رئيسة في ثقافة أي مجتمع مهما كانت درجة تطوره، كما أنها محدد للثقافة وتمظهر لها في ذات الوقت.[1] وهي، أيضا، مكونات أساسية في شخصية الفرد، حيث تتدخل القيم بين التجربة الثقافية والمجتمعية والشخصية كسوابق من جهة، وبين الاتجاهات الاجتماعية والإيديولوجيات والسلوك الاجتماعي كعواقب من جهة ثانية.[2]

ولأن القيم هي على النحو الذي سبق، فهي، إذًا، قادرة على تفسير السلوك الإعلامي للفرد الجزائري، إلا أنها لم تحظ بالدراسة كمًّيا ونوعيا في بحوث الإعلام بالجزائر، وما تم إلى حد الآن من دراسات حول القيم والإعلام – نقصد الدراسات النوعية – لا يكاد يتجاوز أصابع اليد الواحدة. ومع ذلك تتسم البعض من هذه الدراسات بنوع من الغموض في فهمها لمفهوم القيم.

من هذه الزاوية، يمكن الإشارة إلى الغموض الحاصل في تحديد مصدر القيم حيث تزعم بعض هذه الدراسات أن المجتمع هو مصدر القيم، وهذا الزعم يفترض أن المجتمع سابق للفرد على حد قول (ميلتون روكيش)[3]؛ أو يتم اقتراح ثنائية بخصوص القيم: قيم إيجابية وقيم سلبية. وكلا المقاربتين تتعارضان مع فكرة اعتبار الدين هو مصدر القيم كما يؤكد على ذلك الأستاذ عبد الرحمان عزي. ومع ذلك تبقى هذه الأبحاث ريادية لأنها مهدت الطريق أمام الباحثين، وسلطت بعض الأضواء على إشكالية القيم ووسائل الإعلام. وبالتالي، فهي

---

[1] - Anne L.Balazs (1990): Value Congruency- The Case of the " Socially Responsible" Firm, Journal of Business Research, Vol. 20. pp. 171- 181

[2] - Richard de Scharms, The Science of Values, Science, New Series, Vol.194. No. 4268 (Nov, 26. 1976) pp.931-933

[3] – السعيد بومعيزة، أثر وسائل الإعلام...، مرجع سبق ذكره، ص. 151

مساهمات مفيدة وجادة في سبيل التأسيس المعرفي لميدان القيم بصفة عامة، والقيم ووسائل الإعلام بصفة خاصة.[1]

فهذا النقص في الدراسات حول القيم ربما يعود، في رأينا، إلى عدة أسباب، و من بين أهمها صعوبة دراسة القيم في حد ذاتها، و قلة اهتمام الباحثين، إلاّ ما ندر، في مجال الإعلام بهذا الميدان نظرا للصعوبات النظرية والمنهجية، أو لأنه لا يشكل هاجسا في ظل التحولات العميقة التي عرفتها الجزائر على أكثر من صعيد والتي من بين نتائجها، في رأينا، انكسار في البنية القيمية، وطغيان النزعة المادية على حساب القيم الروحية، واعتبار الأولى حتمية أو مظهرا من مظاهر التقدم، أو شرطا ضروريا لولوج العولمة. وهذا بالرغم من أن " القيمة هي أشبه ما تكون بالأكسيجين وأساس القضايا الأخرى ومنها المادية...والتي (أي القيمة) بدونها ينفصل الجسم عن روحه ويتوقف عن الحركة والحياة."[2]

في هذا السياق، تبرز أهمية نظرية الحتمية القيمية في مساعدتنا على فهم أزمة البنية القيمية في المجتمع الإنساني ككل (الحروب والنزاعات والإقصاءات

---

[1]- انظر على سبيل المثال: عبد الله بوجلال وآخرون، الفضائيات العربية وتأثيراتها على القيم الاجتماعية والثقافية والسلوكية، لدى الشباب الجزائري، دراسة نظرية وميدانية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ت.

نصير بوعلي، اثر البث "الفضائي" التلفزيون المباشر على الشباب الجزائري، دراسة تحليلية وميدانية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2002-2003.

[2]- انظر الحوار الذي أجراه السعيد بومعيزة مع الأستاذ عبد الرحمان عزي: « عودة إلى نظرية الحتمية القيمية الإعلامية واستنطاق الصامت» في قراءات في نظرية الحتمية القيمية في الإعلام، إعداد نصير بوعلي بمساهمة باحثين، مكتبة إقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2009 صص.177-200

والمجاعة والأمراض والفقر، الخ.) وفي الجزائر على وجه الخصوص. فمن بين مظاهر هذه الأزمة في البيئة الاجتماعية ككل أزمة ثقة عمومية عميقة في السلطات العمومية على المستوى المحلي والوطني، وهذا، في جانب كبير منه، له صلة باستشراء الفساد في معظم المؤسسات على اختلاف طبيعتها ومستوياتها، والسبب الرئيس، في اعتقادنا، يكمن في ابتعاد الناس والمؤسسات عن القيم التي لم تعد موجهة لسلوكياتهم. ففي هذا السياق، يشير أحد الباحثين إلى ظاهرة تحويل القرارات السياسية في الجزائر إلى أصول يتم تداولها في السوق حسب العرض والطلب وتأسست الوظيفة الراشية (la fonction corruptive)، عن طريق إبرام العقود وتوزيع الأراضي والسكنات بالعمارات ومنح قروض بنكية راشية (le crédit corruptif) للاستثمار.[1]

من جهة أخرى، وعلى الصعيد الإعلامي، يصعب، مثلا، على الصحافيين الجزائريين عموما أن يشعروا بتضارب المصالح أثناء أداء مهامهم، ولا بصراع الدور، لكونهم جزء من المجتمع وبالتالي هم أيضا ابتعدوا عن القيم من ناحية؛ ومن ناحية ثانية فهم يلاحظون من حولهم البعض من تجليات الأزمة في البنية القيمية في المجتمع الجزائري، أي كيف تُبنى الثروات بطرق غير قانونية، وعلى الخصوص، من طرف أصحاب المهن التي يفترض فيها أن تكون متمسكة أكثر من غيرها بالقيم ومن ثمة تكون قدوة في المجتمع، مثل: المحامي الذي يجني أموالا طائلة من الدفاع على متهمين بغض النظر عن الأعمال التي ارتكبوها، كالإرهاب مثلا، والطبيب الذي يُحَوِّلُ المرضى الفقراء من المستشفيات العمومية إلى العيادات الخاصة ليدفعوا أموالا لا يطيقونها، أو مدير البنك الذي يتساهل في منح القروض مقابل شراكة أو رشوة، أو الأستاذ الجامعي الذي

[1]- Kadi Ihsan, Corruption et Stratification Sociale, NAQD, Revue d'études et de critique sociale, N°.25. Automne/Hiver 2008. pp.157-166

يمنح علامة نجاح مقابل إكراميات غرائزية أو مادية، والصحافة المسقية بصفحات من الإعلانات مقابل الصمت، الخ. فكل هذه المظاهر السلبية تدل على أزمة قيم في المجتمع برمته.

ومن هنا تتجلى مسئولية الباحثين في إطار نظرية الحتمية القيمية في توضيح المفاهيم القيمية وتبسيط تعقيداتها وتبيان الميادين التي يمكن أن تطرقها هذه النظرية ورسم الخطوات المنهجية للقيام بذلك، حتى يتمكن الباحثون الشباب والطلبة من إدراك قيمة هذا التوجه واستيعابه.

من هذا المنظور، تتجلى أهمية نظرية الحتمية القيمية لعبد الرحمان عزي والذي يدعونا من خلالها إلى قراءة ثانية لمفهوم القيم من جهة، ومن جهة ثانية، فعلاوة على تبيان كيف أن القيم مصدرها الدين، يدلنا منهجيا على كيفية توظيف مفهوم القيم في فهم السلوك الإنساني، لأن القيم تعمل كمعايير أو كقواعد للتصرف الإنساني، وتمكننا، أيضا، من تنبؤ السلوك الذي سيسلكه الأفراد وشرحه.

وعليه، فإنه يمكن القول بأن الارتكاز على القيم كعامل تفسير يساعدنا، في تخصصنا، على فهم السلوك الإعلامي للفرد؟ حيث أنه ومن خلال ما يستهلكه الفرد من محتويات إعلامية، نستطيع تحديد نوع قيمه بدرجة عالية من الثقة. وهذا يرجع أساسا إلى أن القيم الشخصية للفرد تتوافق مع السلوك الإعلامي المماثل إلى حد بعيد. لأن السلوك القيمي يحدد السلوك الإعلامي، وإدراك القيم المماثلة في المحتويات الإعلامية.[1] وهذا ما توصلت إليه نتائج دراستنا حول قيم وسلوكيات الشباب الجزائري ومحتويات وسائل الإعلام.[2] لأن الفرد

---

[1] - Stuart H. Surlin and Barry Berlin (1991): TV, Values, and Culture in U.S.-Canadian Borderland Cities: A Shared Perspective , Canadian Journal of Communication, Volume 16, Number 3/4.

[2] – السعيد بومعيزة، أثر وسائل الإعلام...، مرجع سبق ذكره.

ينتقي البرامج التي يتعرض لها أو الجرائد التي يقرؤها أو المواقع التي يتصفحها، وبعدئذ يشرع في انتقاء ما سيشاهد ويقرأ ويتصفح، وكل ذلك بفضل القيم التي يحملها. أي أن الفرد الذي يقبل على وسائل ومحتويات إعلامية متناغمة مع المعتقد الذي يحمله، نقول عنه أن سلوكه الإعلامي مترابط مع القيم. وهذا ما أكد عليه الأستاذ عبد الرحمان عزي حين قال بخصوص عملية التأثير: " يكون التأثير إيجابيا إذا كانت صلة محتويات وسائل الاتصال وثيقة بالقيم ويكون التأثير سلبيا إذا كانت صلة محتويات وسائل الاتصال ضعيفة بالقيم أو تتناقض معها.[1] فالسلوك الإعلامي ما هو إلا جزء من النشاط الكلي للفرد الذي هو محكوم بالقيم. وبالتالي، " ...يكون هذا النشاط المنطقي منطقيا بالضرورة إذا كان وثيق الصلة بالقيم وقد يكون هذا النشاط مترابطا مع القيم فيكون ترابطيا، وقد يتحرك في مجال لا يتصل بالقيم فيكون غير مترابط."[2]

هكذا، إذا، حاولنا من خلال طرح هذا السؤال: لماذا نهتم بدراسة القيم؟ تقديم بعض الإجابات الغير مكتملة في انتظار التعمق في هذا الميدان بالأبحاث الجادة خاصة من طرف الباحثين الشباب الذين هم مقتنعين بجدوى ما يقدمه الأستاذ عبد الرحمان عزي من ابتكارات مفاهيمية وتنظيرية وأبرزها نظرية الحتمية القيمية. ومع ذلك تبقى بعض الهواجس التي تحتاج إلى العناية بها بحثيا والتي يمكن تلخيصها في شكل تساؤلات أخرى، على نحو: هل يمكن امبريقيا قياس مدى تمسك الفرد بقيم معتقده أو ابتعاده عنها؟ هل، عند محاولة القياس، نكتفي بما يصرح به الفرد أم نبحث عن أدوات أخرى لسبر أغواره؟ هل القيم

---

[1]- عبد الرحمان عزي، دراسات في نظرية الاتصال: نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2003 صص.103-106

[2]- نفس المرجع

تتغير؟ إذا كانت القيم الدينية لا تتغير وتتصف بالديمومة، فماذا الذي يتغير على مستوى الفرد ويسميه البعض تغيرا في القيم؟ وكيف نطبق منهجا قيميا علميا لدراسة مختلف أطراف العملية الاتصالية والإعلامية؟ اعتقد عندما نؤسس للإجابة عن مثل هذه التساؤلات تظهر آنذاك ملامح برادغم إعلامي قيمي جديد يحدث قطيعة ابستيمولوجية حقيقية وتعم فائدته لأنه سيساعد على فهم مشاكل الأمة وفق الطريق السليم.